# ٦٥ رابعة العدوية
# أم الخير رائدة التصوف الإسلامى

رابعة العدوية البصرية هى البنت الرابعة فى الترتيب للرجل الصالح إسماعيل، ولدت فى البصرة بالعراق ولذلك سميت بالبصرية، وانتسبت إلى سيدها عتيك من بنى عدوة فسُميت بالعدوية، ولُقبت بأم الخير لسعيها فى أوجه الخير.

كانت نموذجاً فريداً للمرأة المسلمة الصالحة. فكانت رأس العابدات، ورئيسة الخاشعات، وزعيمة الناسكات. حتى عرفت فى زمانها بعظيم فضلها، ومزيد علمها وكمال أدبها، كانت تصلى ألف ركعة فى اليوم والليلة، وإذا سُئلت ما تطلبين من هذا؟ قال: «لا أريد ثوابا بقدر ما أريد إسعاد رسول الله ﷺ، حتى يقول لإخوته من الأنبياء: انظروا هذه امرأة من أُمَّتى.. هذا عملها!».

كانت أول من استعمل كلمة «الحب الإلهى» استعمالا صريحاً، فيما تناجى به الله تعالى. وإقبالها عليه وإيثارها له.

عاشت يومها وليلها بوجدان الحاسة لا بإحساس الغريزة، فكانت دائما فى تسامٍ وتصعيد وتحليق كما فى ذكر وابتهال وتسبيح، فى تأمل وتفكر وتدبر... مناجاة لله لم تأت من رجل من أئمة الفقه المعروفين فى عصرها، ولا من عالم من العلماء المشهود لهم بالعلم، إنما جاءت من امرأة أنجبتها أَمَة، فحملت فى يمينها عبء رسالة التصوف فى الإسلام.

وكان تصوفها سلوكاً وشعوراً، فهو سلوك حيث تتجنب الشهوات والملذات، وترمى إلى طهارة الجسم وصفاء النفس. وهو شعور حيث تشعر بالغبطة والسعادة عندما تصل إلى هذه الطهارة وهذا الصفاء.

كما أن التصوف عندها عمل وتأمل، عمل حيث يقوم على المجاهدة، قيام الليل وصيام النهار، بذل النفس والتضحية بالنفيس، وهو تأمل حيث تفكر فى آيات الله فى خلقه، فتتجاوز عالمَ الظاهر إلى الباطن، وتتحقق لها تلك الشفافية النورانية التى تميزها عن غيرها من عباد الله.

والتصوف عندها أيضاً عدمٌ ووجود. عدم للعاجل ووجود للآجل، عدم للفانى ووجود للباقى، عدم للعبد ووجود للرب... وبهذا السلوك الصوفى العظيم أصبحت أُمَّة بنفسها وبجهادها ومعارفها، أُمَّة بما تركت من تراث روحى عميق، ومن أدب مثالى رفيع، ومن هدى مشرق مبين.. وهى فوق هذا رائدة لأكبر منهج روحى فى تاريخ الروحانيات وزعيمة لأكبر وثبة وجدانية للقلوب فى تاريخها العريض، ومنشئة لأول مذهب فى التصوف، حيث كانت صاحبة شِرْعته، ومفجرة ينابيعه، وفاتحة آفاقه..

هل نحن فى حاجة إلى مزيد؟ بالطبع نعم. فنحن فى حاجة إلى معرفة الكثير عن حياة رابعة، وما حدث فيها من تطورات، وهل كانت هذه التطورات طبيعية أم أنها كانت فجائية؟ وفى حاجة لمعرفة الكثير عن كلمتها الخالدة «الحب الإلهى» وإشاراتها ورموزها فى نثرها وشعرها، وهل يمكن أن تكون هذه الكلمة أساساً لمذهب فى التصوف الإسلامى؟ كذلك نحن فى حاجة لمعرفة الكثير عن مكانتها بين أعلام الصوفية فى الإسلام، وهل يمكن أن تكون هى رائدة للعديد من الأعلام والمبرزين فى هذا المجال بالذات؟ ثم نحن فى حاجة إلى الوقوف عند هذه الاتهامات الظالمة التى استهدفتها، هل كان تاريخها بقادر على الرد؟.

ولعلنا فى تحقيق هذا المطلب بكتابات الأقدمين والمحدثين، وفى مقدمتها ثلاثة مصادر، هى مع ترتيب ظهورها «رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى» لأستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى، و«رابعة العدوية والحياة الروحية فى الإسلام» للأستاذ طه عبد الباقى سرور، و«العابدة الخاشعة رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين» للأستاذ الدكتور عبد المنعم الحفنى» إلى جانب المصادر الإسلامية الكبرى فى مظانها الأولى التى تعلن عن نفسها كلما تطلب الأمر.

ولنبدأ بالميلاد والنشأة.

الزمان: مطلع القرن الثانى للهجرة.. والمكان: البصرة بالعراق.. تلك المدينة التى أنشأها المسلمون فكانت ملتقىً للعلماء المتكلمين والمفكرين، وفى الوقت نفسه مكاناً للمترفين والمنعمين والأثرياء، حتى قال عنها سهل بن عبد الله التسترى: «لما دخلت مدينة البصرة وجدت فيها أربعة آلاف يتكلمون فى المعرفة». وفى الوقت نفسه وصفها ياقوت الحموى فى معجمه: «بأنها كانت تطوى تحت أجنحتها مئات من دور العزف والغناء واللهو الناعم». على هامش حياة هذه المدينة الذاهب أهلها بين الإيمان والمعرفة، واللهو والترف، استقر كوخ صغير لرجل يدعى إسماعيل، اشتهر بين غيره من مئات الأكواخ الصغيرة بأنه «كوخ العابد» إشارة إلى أن صاحبه كان رجلاً بسيطاً، جردته الحياة من كل متاعها وترفها. ولم تُبْقِ له إلا الإيمان والعبادة.. حتى لقب بالرجل العابد.

اعتاد هذا الكوخ الصغير أن يستقبل فى كل عام مولودة أنثى تنتزع دموع خيبة الأمل من عيون الأم، التى لا ترى فى الوافدة الجديدة إلا عبئاً جديداً يثقل كاهل الأسرة المتواضعة، فى حين تبعث بسمة التفاؤل والأمل فى وجه الأب المؤمن، الذى لا يرى فى وجه كل وافدة جديدة إلا نعمة وخيراً، حتى إذا بلغ عددهن ثلاثاً، كانت الدعوات تعلو من الأم أن يرزقها الله بولد يحمل اسم الأب، ويكون عوناً لأخواته من البنات. ولكن يشاء الله ـ ولا راد لمشيئته ـ أن تُرْزَقَ بالبنت الرابعة.. التى تضيف إلى الأم هماً وغماً مضاعفاً، على ما آلت إليه أحوال الحياة وقتئذ من شظف وبؤس.

ويسجل فريد الدين العطار لحظة ميلاد هذه المولودة فى مؤلفه «تذكرة الأولياء» قائلا: «إنه فى الليلة التى أتت فيها رابعة ـ التى عُرفت فيما بعد برابعة العدوية ـ إلى الدنيا لم يكن فى بيت أهلها شئ يصلح للوليد عند ولادته، حتى أنه لم يكن هناك ثمة مصباح للنور، ولا خرقه تُلَفّ بها المولودة». وهذا هو الأب العابد العازف عن طلب الحاجة من الآخرين يضطر هذه المرة. فيطرق الأبواب بدون مجيب، فيعود إلى بيته حزيناً كاسفَ البال، ولكنه مع ذلك غير قانط من رحمة الله، بل مقبل عى صلاته وتوكله عَلى الله تعالى. حتى إذا أخذته سِنَة من النوم، رأى فيما يرى النائم النبى ﷺ يأتيه ويقول له ما يقصه فى الصباح:

«لاتَحْزَنْ فهذه الوليدة سيدة جليلة، وإنَّ سبعين من أمتى لَيرجون شفاعَتَها..» ثم أمره بالتوجه إلى أمير البصرة، ويكتب له رقعة من ورق يخبره فيها أن النبى زاره فى منامه وأمره أن يذهب إليه ويقول له: «إنك تصلى مائة ركعة كل ليلة، وفى ليلة الجمعة أربعمائة، ولكنك فى الجمعة الأخيرة نسيت، فلتدفَعْ كَفَّارَتَها لصاحب هذه الرقعة».

ويعلق الأستاذ سرور على هذه الرواية: «بأنها قد تكون حقيقة واقعة، وقد تكون أُقصوصة خيالية نُسجت حول رابعة وكراماتها». غير أن الثابت: أن المولودة ولدت فى أسرة صالحة فقيرة لم تنجب ذكورًا، وأنها سميت رابعة لأنها كانت رابعة الإناث فى هذه الأسرة، وأنها وُلدت فى بيئة عربية إسلامية خالصة، وليس كما يخوض وينحرف بعض المستشرقون يرجون نسبتها إلى أصول فارسية أو أعراق مسيحية وأنها نُعتت بالبصرية تمييزاً لها عن سَمِيَّها الأُخرى «رابعة الشامية» كما يذهب الشعرانى والمناوى وابن الجوزى وابن خلِكان فى تواريخهم، مؤكدين أن سميتها الشامية لها ظروف أخرى، لعل أبرزها أنها تزوجت، فى حين عاشت رابعة العدوية طوال حياتها عذراء بتولاً، برغم تقدم أفاضل الرجال لخطبتها، لأنها انصرفت إلى الإيمان والتعبد، ورأت فيه بديلا عن الحياة مع الزوج والولد.

ونطوف مع فريد الدين العطار فى ترجمته لسيرة رابعة العدوية، فنراه يصورها لنا فتاة نشأت مع النور.. فقد كانت منذ طفولتها الباكرة عجباً بين لداتها، ذكاءً وإيماناً وشعوراً، وأنها حفظت القرآن الكريم وتدبرته، وقرأت الحديث الشريف وتدارسته، وحافظت على الصلاة وهى فى عمر الورود، حتى تكوَّن لها وجدان دينى لماح وهى لم تزل طفلة صغيرة.

ومن الروايات المتفق عليها بأن والد رابعة قدَّم لأسرته طعاماً فأقبلوا عليه إلا رابعة، وهنا لاحقتها العيون متسائلة: فنظرت إلى أبيها هاتفة: يا أبت، لست أجدُكَ فى حِلٍّ من حرام تطعمنيه.. ورفع الأب العابد رأسه عجباً وقال فى دهشة لها متسائلا: أرأيتِ يا رابعة إن لم نجد إلا حراماً؟ فقالت: نصبر يا أبت فى الدنيا على الجوع خيراً من أن نصبر فى الآخرة على النار» وعلى هذا النحو الباهر كانت نشأتها.

ويتوفى الأب العائل لهذه الأسرة، وتلحق به الأم، وتذوق رابعة فى مقتبل حياتها مرارة اليتم مع قسوة الحرمان، ويُضاعف من كل ذلك ما أصاب البصرة وقتئذ من قحط ومجاعة قلبت الأمور رأساً على عقب، فدعت الأُسر إلى الرحيل عنها، وكان منها أسرة رابعة التى لا عائل لها، فجعلت تضرب فى الأرض التماساً للقوت الضرورى، ويُفرق الدهر بين الشقيقات الأربع، وتعدو رابعة البنت الصغيرة وحيدة فقيرة، لا تجد ما يسد رمقها.

وطبيعى أن تصحب الأزمات الاقتصادية اختلالات اجتماعية. وتتدنى الأخلاق، وتبرز الرموز الشوهاء من ذئاب بشرية، ومصاصى دماء، وتجار رقيق، لتقع هذه البنت اليتيمة فى يد أحدهم ليبيعها بستة دراهم لآخر غليظ القلب، قاسى المشاعر، فيسومها الكثير من ألوان العذاب.. وهكذا تنتقل من هوانٍ إلى هوان.. غير أن هذا الهوان لم يُطْفِىءْ ذلك القبسَ المتغير فى قلبها، ولم يخمد هذا الإيمان فى نفسها حتى يصبح هذا الإيمان سرها وحياتها وتاريخها، ويصدق عليها قول الله عز وجل: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[1] فكانت تهرب من شظف الحياة وضيق الدنيا ، إلى سعة الإيمان ورحمة الله.

ومن عجيب أمر هذه الفتاة الصغيرة أنها كانت تناجى ربها باكية: «إلهى أنا يتيمة معذبة أرسفُ فى قيود الرق وسوف أتحمل كل ألم، وأصبر عليه، ولكنّ عذاباً أشد من هذا العذاب يؤلم روحى ويفكك أوصال الصبر فى نفسى، منشؤه ريب يدور فى خلدى: هل أنتَ راضٍ عنى؟! تلك هى غايتى».

ومن منطلق عبادة الله سبحانه وتعالى ابتدأت رابعة ترتفع درجات ودرجات.. إنها تعبد الله وتنشد رضاه، وفى قلبها همس جديد، وفى روحها نداء حار.. أشياء: مبهمة تراودها ولا تفهم سرها.. غير أن مؤرخيها وكتاب سيرتها يقفون عند هذا السر قائلين: إنه الحب الكبير.. الحب الذى سَتُعْرَفُ به رابعة، ويكون علماً عليها وتكون علما عليه، وهو الحب الإلهى فى أسْمَى صوره، وأبهى معانيه، ولتكون من بعد صاحبة مدرسته..

---

(١) سورة الحجرات ـ من الآية السابعة.

ها هى ذى رابعة تسير ثابتة الخُطى.. مستقيمة الغرض والهدف، فلا التواء ولا انحراف.. تؤدى عملها فى بيت سيدها بما يرضى ضميرها، وتؤدى فريضة ربها فى إخلاص وتفانٍ، حتى إذا استيقظ سيدها ذات ليلة فيسمع صوت مناجاتها وهى ساجدة: «إلهى أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى خدمتك، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن مناجاتك.. لكنك تركتنى تحت رحمة مخلوق قاسٍ من عبادك...» وبينما يراقبها سيدها إذ يخطف انتباهه انبلاج ضوء حولها يفزع له، وتبدأ الرحمة تعرف طريقها إلى قلبه المغلق فيظل ساهراً مفكراً، حتى إذا كان الصباح دعاها قائلا: «أى رابعة، وهبتك الحرية فإنْ شئت بقيتِ هنا ونحن جميعاً، فى خدمتك، وإنْ شئتِ رحلت. أنىَّ رغبتِ». فما كان منها إلا أن وَدَّعَتْهُ وأرتحلت لتبدأ مرحلة جديدة.

وكما يقرر مؤرخو رابعة ونقاد سيرتها.. بدأت هذه الفتاة الصغيرة فترة مجهولة فى حياتها، فيها نشطت بعض الكتابات المغرضة التى تركت لخيالها العنان، فصورت هذه المرحلة من حياة رابعة بصورة غير كريمة، أن فريد الدين العطار، وهو أكثر المؤرخين تتبعاً لتفاصيل حياة رابعة، قال عن هذه الفترة بالذات: «إن رابعة بعد تحررها من رقها احترفت مهنة العزف على الناى. ـ وهى للعلم مهنة لاشُبهة فيها ـ زماناً، ثم اعتزلت الناس بعد ذلك، وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة».

هذا رأى واحد، لكن ترى ماذا يفعل تغريد عصفور واحد فى حديقة واسعة.. نقول ماذا تفعل رواية منفردة وسط كم هائل من كتابات مغرضة للمستشرقين لاتجد دفعاً من أبناء لسانها العربى؟! ومن عجيب أمرهذه الكتابات أنها بعد أن تكيل الهجوم على رابعة ألواناً نراها تنتهى فتقر وتعترف بأن رابعة عاشت بعد هذه الفترة مؤمنة عابدة. لها تأثيرها الأخلاقى، وآثارها العلمية. ولا نعرف كيف يتفق هذا مع ذاك؟

غير أن الطامة الكبرى كانت فى هجوم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه «رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى»، ومما يزيد المأساة أن كتاب الدكتور بدوى ظل مرجعاً لكثير من الكتابات عنها، وبالطبع تأثرت هذه الكتابات بوجهه نظره.

فالدكتور بدوى يؤرخ لهذه المرحلة المجهولة من حياة رابعة حتى يقف عند مسألة احترافها العزف على الناى، فنراه يقدم ذلك بتسجيل أنها كانت باهرة الجمال، ساحرة الفتنة، حتى يقول: «ويحتمل كذلك أنها إبان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملامسات قد اندفعت فى طريق الشهوات إلى مدى بعيد، ويخيل إلينا أنها قطعت شوطاً طويلا فى طريق الإثم. وغرقت فى بحر الشهوات، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة».

ويواصل الدكتور بدوى نظريته فيقول: «وأوغلت رابعة إذن فى طريق الشهوات ما وسعها الإيغال».

ويبرر تحولها إلى الإيمان الذى له شواهد وآثار، لا يستطيع أحد نكرانها.. إنه يضرب أمثلة لشخصيات غير إسلامية، حتى يتمم نظريته بشكل يرضيه وقد لايرضى المنهج العلمى، فيقول: «فهذه الإنقلابات الروحية الكبيرة، إنما تقع دائماً نتيجة لعنف وإفراط ومبالغة الطرف الأول المنقلب. فعنف «إيمان القديس بولس كان نتيجة إنكاره المسيحية، وعنف الحياة النقية لدى القديس أوغسطين كان لازماً طبيعياً لعنف الشهوات الحسية التى حيبها قبل تحوله إلى الإيمان.. إن الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يبدعون ويثبتون التاريخ وما كان يمكن رابعة أن تتطرف فى إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل فى فجورها وحبها للدنيا!! من أعماق الشهوات العميقة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة، ومن عمائق الإنكار والتجديف تنطلق الموجة التى تنشر الإيمان فى الدنيا بأسرها».

هكذا يبنى الدكتور بدوى نظريته الهجومية على الاحتمال والتخيل حين يقول «يحتمل ويخيل»، والأغرب أن يصبح الاحتمال والتخيل من قبيل الحقائق العلمية لديه، وهو ما ترفضه كل الأعراف العلمية التى تضمنتها كتاباته، وعلى وجه الخصوص تلك التى تهتم بمناهج البحث التى كان يلقنها لطلابه ومريديه.

والأكثر أن الدكتور بدوى بتوكيده لمعنى التحولات والانقلابات فى النفس البشرية من أمرٍ إلى نقيضه، من الرزيلة إلى الفضيلة، من عنف الأفكار إلى عنف

الإيمان يجعلنا نعتقد أنه لا يمكن أن يكون هناك عابد مؤمن قوى فى عقيدته وإيمانه، ما لم يكن من قبل ملحداً فاسقاً! ولو طبقنا هذه النظرية لَمَا بقى هناك مكان للأولياء والقديسين والصالحين والمؤمنين، إلا أن يكون شرط تميزهم عن غيرهم بوصولهم إلى هذه الدرجات العالية أن يمروا بمرحلة من الفسق والفجور، وهو ما يرفضه كل منطق على الأرض.

وعلى هذه النظرية المؤسفة للدكتور بدوى عقب الأستاذ سرور فى كتابه تعقيباً سريعاً سمح به سرده لسيرة رابعة.. وبقى الأمر معلقاً.. حتى تولى الردّ بصورة علمية مكثفة ودقيقة الدكتور الحفنى فى كتابه «العابدة الخاشعة رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين» فأنصف هذه السيدة، وأثبت بالحجة والدليل أنه لا مجال لاحتمالات وخيالات الدكتور بدوى ما دامت هناك حقائق ووقائع تاريخية، والأكثر أنه كشف علة هجوم الدكتور بدوى لهذه السيدة الفضلى.

ويعرض لنا الدكتور الحفنى ما ذهب إليه الدكتور بدوى من تفسيرات، وخلال ذلك يصحح ما جاء من أخطاء، كأن يقول عن «تريزا الأقلية» بأنها تريزا الأبيلية، ويكشف التطابق والمشابهة فى التحليل بين الدكتور بدوى والكاتبة الفرنسية سيمون دى بفوار فى تحليلها لتحوّل تريزا الأفيلية ليخرج فى النهاية بتفسير لا ينطبق على رابعة لاختلاف الشخصيتين، فيقول: «هذا هو رأى الدكتور بدوى، وهو يصدر عن مذهب فى التأريخ للسير يقوم على الفروض والاحتمالات، وذلك قد يكون صحيحا، إلا أنه بشروطه ـ كما يقول توينبى ـ فلا بد أن تأتى الفروض والاحتمالات من مقدمات صحيحة، ولابد أن تكون هناك إرهاصات لما سيقدم من سلوكيات مستقبلة عند الشخصية المؤرخ لها..». ثم يقول: «ولا أرى إلا أن الدكتور بدوى اعتسف الفروض والنتائج، وكان حاله ـ كما قال سارتر عن الشيوعيين فى فرنسا من أنهم يجبرون الأحداث على الدخول فى فروضهم الفلسفية، فما لا يتوافق معها ذهبوا إلى إنقاصه من هنا وهناك، أو الزيادة فيه ليناسب قوالب فروضهم، وتكون النتيجة أن الحدث يُشوَّه، وذلك نفسه ما أعتقد، أن الدكتور بدوى ـ فى أحكامه عن أفكار مسبقة ـ يختار من الشخصيات ما يظن أن مذهبه الفلسفى ينسجم عليها عند التطبيق. وكتاب رابعة للدكتور بدوى لم يكن

سوى تطبيق من هذه التطبيقات الفلسفية الكثيرة التى يلجأ إليها لإثبات صحة مذهبه الفلسفى».

ثم يطرح الدكتور الحفنى مذهب الدكتور بدوى وتطبيقه فى حالة رابعة العدوية للمناقشة، ليخرج فى النهاية إلى حالة من التناقض ما كان ينبغى أن يتردى إليها هذا الكتاب.. يضاف إلى هذا رصد الدكتور الحفنى لطائفة من الآراء والأقوال للعلماء والمؤرخين فى الشرق والغرب فى تصوف رابعة واتساق شخصيتها، ليختم كتابه بفصل رابعة وأعلام عصرها من العلماء والفلاسفة والمؤرخين، وكأنه يريد أن يقدم للدكتور بدوى الدليل التاريخى على القيمة العلمية والروحانية لرابعة العدوية، إلى جانب تقديمه للأدلة المنطقية على هذه القيمة.

ويبقى بعد ذلك رأى رابعة فى الحب الإلهى، حيث استعملت هذا اللفظ تعبيراً عن إقبالها على الله تعالى، وإعراضها عمَّا سواه، ولم يكن حبها لله خوفاً من النار أو طمعاً فى الجنة، بل كان شوقاً إلى الله سبحانه وتعالى وأُنْسًا به، وابتغاء مرضاته، وهو ما عُرف فيما بعد بالحب الإلهى. ولعلها تجمل نظرتها إلى هذا الحب الإلهى شعراً رقيقاً راقياً، حيث تقول:

أحبك حبين حب الهوى ... وحُبّاً لأنك أهل لِذَاكَا
فأما الذى هوحب الهوى ... فشغلى بذكْرِكَ عَمَّنْ سواكاَ
وأما الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُكَ لِلْحُجْبِ حتى أراكاَ
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاكَ لى ... ولكنْ لَكَ الحمد فى ذا وذاكاَ

فالحب الإلهى عندها حبان، حب تشتغل فيه بذكرها لله، وتنشغل به عمَّا سواه، وتسميه حب الهوى، وحب تنكشف فيه الحجب، ويتجلى جمال المحبوب الحقيقى وتعبر عنه بأنه الحب الذى.. الله أهلٌ له. وأعلى وأرقى الحبين هو الحب الثانى، إذ يحصل فيه مشاهدة الحضرة الإلهية فى الدار الآجلة فى حين أن الحب الأول هو حبها لله لإنعامه عليها بحظوظ العاجلة.

وقد استوعب حب الله لذاته كل خلجات قلبها، حتى قالت فيه لما سئلت عن

حبها للرسول الكريم: «إنى والله أحبه حباً شديداً، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين، وقد مهدت بحبها لله وبربطها بين الحب والكشف.. السبيل لغيرها من أعلام التصوف، من أمثال ذى النون المصرى، والحلاج وإبن الفارض وابن سبعين.

لأن اسم رابعة قد اقترن بالحب الإلهى حيث أصبح مرادفاً لها، ممتزجاً بها، سارياً فى تاريخها فى ذكرها ـ حتى وفاتها ظلت رائدته وصاحبة مذهبه، ومفجرة ينابيعه فى القلوب، ومطلقة ألحانه فى الوجود.. هذه المعانى السامية لحب.. هى بعينها العنوان الأكبر لروحانيات الإسلام بما ينبثق من أنوارها، ويتفجر من ينابيعها من فيض وكشف، ومعرفة وإلهام، لم تعرف قبل رابعة، ومن هنا كان دور رابعة فى التصوف الإسلامى من أخطر الأدوار، فهى الصورة الأولى، وهى أول منارة أرسلت الشعاع الروحى لتنتعش وتتجمل بالفضائل الخلقية والنفسية، ويكفى للدلالة على مكانة رابعة ما يقرره المؤرخون باستعراضهم للخطوط الرئيسية للمعارف الصوفية عند الصفوة المختارة من رجال الروحانية الإسلامية، فتبين أنهم جميعاً يمشون تحت ظلال رابعة، ويعيشون على نبعها، حتى قال عنها الشيخ الإمام مصطفى عبد الرازق: «رابعة هى السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن فى هيكل التصوف الإسلامى، وهى التى تركت فى آثاره كثيراً من نفثات صادقة بالتعبير. وإن الذى فاض به بعد ذلك الأدب الصوفى من شعر ونثر لهو نفحه من نفحاتها».

وأن يقول عنها نيكلسون: «لقد رسمت رابعة معالم الطريق، فأندفع الموكب الصوفى فى الإسلام يسير فى سرعة خاطفة على منهجها فى الحب والمعرفة..» ليتمم هذا الرأى ماسينيون: «لقد كان دور رابعة حاسماً، فعلى وقع خطواتها سار ابن الفارض والحلاج وغيرهما من أعلام التصوف الإسلامى».

ولهذا يحق لنا أن نتفق مع مؤرخى رابعة العدوية البصرية. بأنها صاحبة مذهب، وأن كل من اتبع سبيلها، ومشى على نهجها، وسبح فى بحارها.. لم يأتِ بجديد بعدها.

* * *